

حضارة القرآن

أ.د. يلماز أوزاقينار^P

أدى تطور العلوم في القرون الأخيرة إلى اقتناع العالم بمفهوم غريب للحضارة فعدت الحضارة أو المدنية العلم، والقدرة على العمل به أو تنفيذه، وصار التحضر يعني التعلم بالطرق العلمية والعمل بالتكنولوجيا التي هي امتداد للتعلم. تطورت الحضارة بإطراد، وتختلف غير المتحضرين بإطراد. وأعجب شيء هو تبني غير المتحضرين حسب هذا المنطق، المفهوم نفسه عن الحضارة. وفي إطار المفهوم هذا، لم يعد المتعلمون والقادرون على تنفيذ علومهم هم المتحضرين فقط، بل حصلت قناعة بأنهم بشر من صنف عال. صار المتحضرين يعدون أنفسهم عنصراً سامياً، وصار غير المتحضرين يرون أنفسهم عنصراً واطناً. لقد تشكل نظام الدنيا الجديدة على هذا الوجه! المتحضرين والمتفوقين يمتلكون القوة الاقتصادية والعسكرية والسياسية، وهم جهة إصدار المقررات وعلى الجميع أن ينفذوا. هذا هو معنى القوة.

هذا النظام الجديد الذي زاد يؤس المتخلفين، لم ينفع المتفوقين تماماً! فالخواء الروحي والأضطراب الاجتماعي خرب جيل الشباب. إن تعامل المتحضرين مع المجتمعات الواقعة خارج دائرة الحضارة بالقهر والاستغلال والظلم والتمييز العنصري والقسوة لآذرائهم لهم، حدد مصير تلك المجتمعات، لكنها في الوقت عينه حدد مصيرهم أيضاً. لأن أولئك المتحضرين والبشر المتفوقين بدأوا يحملون في أرواحهم ترسبات القهر والظلم والتمييز العنصري الذي يوقعونه بالبشر الآخرين، واضطروا إلى أن يحيوا حياتهم الحضارية بالعيش تحت ثقل هذه الترسبات. هؤلاء الذين اعتبروا حب النجاح ودافع الغلبة وطلب المنفعة وحظوظ الغرائز حوافزاً ثمانية، واستغلوا وامتصوا بهذه الحوافز المجتمعات البدائية والمتخلفة بالرحمة، وجهوا سير حياتهم العائلية وعلاقتهم الاجتماعية أيضاً بالقسوة نفسها. إن الإنسان يبني نفسيته وشخصيته من خلال التعامل مع الآخرين، ولا بد أن تنعكس هذه النفسية والشخصية على علاقاته. نفسية الإنسان وشخصيته ثابتة، ولا تتجدد عنه في علاقة معينة أو تبدلان من علاقة إلى أخرى، بل تنعكسان على علاقاته جميعاً بلا استثناء، وتبقيان في الجوهر ثابتتان وإن بدتا متغيرتان

^P من مواليد سنة 1934 تخرج من قسم الفلسفة بكلية الآداب لجامعة استانبول سنة 1957 وفي سنة 1960 من جامعة كامبرج وحصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة استانبول سنة 1964 ، وأصبح استاذاً سنة 1978 . وعمل في أبحاث التفكير والذهن _ مجال إختصاصه _ في جامعات ألمانيا. وأصبح عميداً لكلية التربية في جامعة سلجوق. له مؤلفات ضمن إختصاصه وحالياً استاذ في كلية الآداب في جامعة استانبول.

ظاهراً في عدد من العلاقات. فيكون المتعامل بالقسوة ضحية لقسوته. القاسي لا يتعامل بالرحمة مع المتوسل به حتى لو كان المتوسل فلذة كبده، بل ينتابه الغضب. لان التوسل به يزيد اللهب في شعور القسوة، ويقوده ذلك الى بغض نفسه. وفي هذه الحال يحيل الانسان مشاعر الكراهية لنفسه الى الغضب على الاخرين في محاولة للقضاء على الاضطراب الناشئ من الشعور بانه مكروه وبغضب. ويظن بذلك انه قمع حسه بالمكروهية، لكنه في هذا الاثناء يكون قد خرب علاقاته ووقع روحه في الاضطراب والتوتر. ومن اجل قمع القلق الروحي الناجم من دمار العلاقات، أي من اجل ان ينسى نفسه، يلجأ الى الخمر والمخدرات ولذات الغريزة غير المشروعة. وقد يلجأ الى تحقيق نجاح اكبر من اجل الاطمئنان الى انه وجود له قيمة. وفي سبيل التغلب على العوائق عن تحقيق نجاح اكبر، يضطر الى ان يكون اشد قسوة. وهنا يسقط في دوامة لا نجاة منها، ويصل الى نتائج تسحق حياته.

ان الانسان في عصرنا في حاجة ماسة الى الخلاص، سواء في ذلك البائس المتخلف! او من يظن نفسه متحضراً ومتفوقاً. امان المجتمعات والعالم كله يتحقق بسلامة نفسية الفرد أولاً. الانسانية ككل متكامل. ولا يمكن لنظام لا يحتضن الانسانية جمعاء بقيمه المشاعة بين الجميع، ان يحقق السلام والامان للعالم. لان الامان والسلام لا يقوم على قدميه إلا باقتسامه واشاعته بين الجميع. فاذا تعرض طرف الى القسوة او الاستغلال او الظلم، فهذا يعني انعدام الراحة والامان في الطرف الآخر. واذا كان طرف اكثر غنى واشد قوة واعظم علماً واوفر رفاهية، فهذا يعني غياب الطمأنينة والراحة في جميع الاطراف. ان الانسان يعيش في علاقات متشابكة مع الآخرين، ولا يمكن ان تستقل سعاداته ويستقطع امانه عن مجمل نوعية العلاقات هذه. والنوعية التي تولد الامان والراحة هي سيادة الرضا والقناعة بين الاطراف المنضوية في تلك العلاقات.

فما النظام الذي ينبغي ان ينظم به الناس حياتهم حتى يتحقق الرضا والقناعة في الافراد المنضوين الى تلك العلاقات والشائج؟ ان النظم التي وضعها الانسان، وبضمنها الموضوعة وفق القواعد الديمقراطية، وضعت دائماً تحت ثقل الارادة لقسم من البشر. نعم، ان القانون ينفذ، لكن الامان لن يتحقق بغير تحقيقه للرضا والقناعة. ان الله يأمر بني آدم بالاحسان والعدل والانصاف والرحمة والتعاون. فمن متطلبات الانسان المؤمن، ان ينظم القوانين المنظمة لحياته حسب القيم التي امر بها. وان القبول بالافراد او الفئات وحدات مطلقة، وانتظار احسن النتائج لعموم المجتمع من اضطراع أنانياتهم، ثم تسمية هذا الانتظار بالديمقراطية، ليس إلا وضع الديمقراطية على ارضية غير منطقية. فلا يمكن تحقيق الامان والراحة في الحياة العائلية والعلاقات الاجتماعية والنظم الدولية إلا بسيادة القيم التي ذكرناها آنفاً. كما لا يمكن ان تمتد جذور تلك القيم في الانفس والارواح وانعكاسها على التصرفات إلا بالإيمان بالله تعالى.

نقر هنا ان الإيمان ليس ضامناً مهنياً، وقد تتعرقل انسيابية تلك القيم الى التصرفات بسبب الضعف الانساني. لكن ينبغي ألا يكون هذا الاحتمال ذريعة لاي مجتمع تحول دون اعداد ابنائه اعداداً يجعلهم يعيشون مؤمنين ووفق القيم التي امرنا الله بها. فيجب تقوية منهج التربية الذي يصب التصرفات في قوالب تلك القيم اللطيفة لبناء العلاقات الاجتماعية بانواعها كلها. لان القانون لا يحل محل التربية، بل يبين الزواجر التي تنفذ في حال مخالفته. والقانون الذي لا يسند بالتربية، يفقد فاعليته الاجتماعية. ان غياب التربية والقيم التي تدعو الى الاستمسك النفسي بها، يضعف شعور الالتزام بالقانون لدى الافراد الذين لا يحول دونهم رادع عن الانانيات والمنافع الذاتية والميول الغريزية. فمن السهل ان يخضع العقل

غير المؤمن للانانية والمنافع الذاتية والدوافع الغريزية، وبالتالي يحل رغبة الالتفاف على القانون بستلافي زواجره، محل رغبة الانقياد اليه. ففي غياب مفهوم الحلال والحرام النابع من الإيمان بالله، يكون القانون مانعاً للكسب بغير حق بالجزاء المترتب على اختراقه. فاذا أمن انسان لا يراعي حلالاً او حراماً من الوقوع تحت طائلة العقاب القانوني، ينحرف الى الكسب غير المشروع. لذلك، تشارك التربية الاسلامية الواعية والراكرة في النفوس بيمان عميق، في جني الفوائد الاجتماعية المأمولة من القوانين، وان لم تحل محلها. ولا شك ان هذه التربية تكون قاعدة تحتاج اليها الانسانية في تحقيق الامان والراحة إذا سادت العالم كله.

وقد يقول قائل: ان هذا مجرد تصورات. لكن ينبغي ان يتصور الانسان ما يؤمن به، وان يسعى الى تحقيق التصور هذا في عالم الواقع. وهذا ما فعله سعيد النورسي. لم يكن النورسي رجل علم ولا فيلسوفاً ولا استاذاً في كلية الشريعة! بل مريباً. مريباً اعتمد القرآن في قواعد التربية التي وضحها. وبهذه التربية، تنال سعادة الدنيا اثناء السعي لبناء سلامة الآخرة. فيها أن كل شئ مصيره الى الله، لكنه يؤول الى الله عبوراً من الدنيا. هنالك الحكم الأخير النافذ الى الابد، لكنه يصدر حسب مرتبة الإيمان ودرجة العمل الصالح هنا في الدنيا. بهذا القسطاس ينال السلامة عباد الله الذين يرضى الله عنهم ويلقى العذاب من سخط عليهم. ان ما يهم المؤمن ان ينال رضاء الله وهو في الدنيا، وسعادته ان يرجو رضاه. وما يناله الانسان من خير في حياته او ما تصيبه من نوازل وبلايا فيعلم الله. والمؤمن يؤمن بالقدر وان الله قدر الاقدار بحكمته. لذلك لا يضع شروطاً لازمة للحياة، بل يؤمن بالله ويعتمد عليه في كل حال من احوال حياته، ويلتزم بالعمل على كسب رضائه في كل وضع وحال. ان هذا العمل بذاته هو لفائدة المؤمن، ولفائدة الآخرين ايضاً. هذه المعادلة نافذة في كل عمل فيه رضاء الله.

من المسلم به كواقعة اجتماعية، ان العالم كله انساق الى تأثير الحضارة الغربية. وتسود فناعة بان المدنية الغربية ورثت مخلفات الحضارات السابقة وتقدمت في خطى سريعة بلا مناسف. ويوجد ادعاء ان هذه المدنية الغربية المتسارعة في التقدم والشديدة في قوة التأثير اكتسبت العالمية، استناداً الى انسياق البشرية كلها الى أتمودج الحياة المدنية الغربية. ان سعيد النورسي يبرز التربية القرآنية ازاء هذا الادعاء، بملاحظته ان مفاصد الحضارة الغربية تغلب محاسنها، ولذلك ليست امل الانسانية المنشود، وان نور الامل هو في نظام الحياة المستند الى تربية القرآن. من اجل تقويم رأي بديع الزمان هذا بالمنهج العلمي، اود ان افصل في مفهوم المدنية او الحضارة.

لكل تجمع انساني ثقافة. ان منظومة رد الفعل والغريزة الفطرية التي يمتلكها الانسان بالموروث الجيني، غير كافية لدوام الحياة الانسانية. ففي الانسان قدرة التفكير الرمزي. فهو يفكر في تجاربه ويصدر احكاماً بشأنها ويقرر افعاله في حدود الممكنات وينفذها. وينتج شواهد وآثاراً، ان ثقافة المجتمع هي كيفية اداء الافراد لافعالهم والاثار المنتجة. اذن، لكل مجتمع ثقافة، بمعنى طراز حياة أو كيفية حياة. وان حياة المجتمع يعتمد على القواعد المحققة لاستقرار العلاقات. ويعني ذلك ان الافعال والاثار المنتجة اختيارات ارادية في حدود الممكنات، لكن الاختيار ليس اعتبارياً، بل قائماً على مجموعة قواعد. والقواعد هي التي تمنح الثقافة التكامل والاستقرار. اما مصدر القواعد، فهو دائماً منظومة عقائد واحلاق.

اذا كان الإيمان قد تشكل من تصرفات العاطفة والتوجس ازاء الطبيعة فقط ولاشئ غير ذلك، فان هذا يقول الافعال ويحددها. ويلاحظ ذلك في مايسمى "الثقافات البدائية" التي تحدد ادق تفاصيل

الافعال وفق اعتقاد معين. فيجري الخضوع لها بمخاضها، ويشيع اعتقاد بتعطل مجريات الاحداث اذا لم تكرر الافعال بنفس القوالب. وبالتالي، لايجرأ احد على الخروج عن تلك القوالب خوفاً من تخلخل المعادلة المنصوبة على الافعال بين الطبيعة وما وراء الطبيعة. وفي العادة توضع رواع شديدة على تغيير الثقافة. في هذا الحال: الثقافة متجمدة لاتتحرك.

ان احتواء الإيمان (ومن طبيعته، ان يحتضن انعكاس العواطف والخفقات) على منهجية عقلية تحوله الى " مفهوم"، يجعله ذا مردودات ومحصلات في مستوى المناظرات أي المحاكمات العقلية. فالافعال تنتخب وتقوم وتبدل وفق معيار وحسب الظروف، بدلاً عن التجميد. المهم هنا المحافظة على تلك العلاقة (المتولدة من المناظرة) بين الفعل والإيمان، وعدم التناقض بينهما. ففي هذه الحال، يعتمد تنوع الافعال وآثارها الناتجة، وتطورها، على وجود اسس عقلية للعقائد الإيمانية كمفهوم. فان اعتقاداً من هذا النوع يقود الانسان الى المحاكمة العقلية ونتائج جديدة. ونلاحظ وجود إيمان من هذا النوع ونظام اخلاقي مرتبط به في كل مدنية غابرة او قائمة في ايماننا هذه. إن بحثنا النظري هذا، يميز بين إيمان في مستوى ثقافة بدائية يقوّل ويحدد افعال التصرف النابع من العواطف والخفقات والهواجس، والإيمان الذي يؤسس حضارات كمفهوم قائم على قواعد عقلية.

ان كل تجمع انساني يعتمد على منظومة عقائدية واخلاقية. وهي التي تحقق الاستقرار والنظام. لكن المدينيات بالمعنى المشروح آنفاً لاتظهر إلا في التجمعات التي تكتشف وجود مصدر قدرة وممكنات في الذهن الانساني. ويمكن التحدث عن الحضارة في المجتمعات التي تقوم بافعال وتولد آثاراً منتجة عن علم وتقدير وفق منظومة عقائدية واخلاقية كمفهوم يعتمد العقلانية. في بحثنا النظري هذا، تؤكد على عنصرين اساسيين، الاول: هو ان حياة المجتمع لا يستقيم إلا بنظام عقائدي واخلاقي يستجلى الغموض ويحقق الاستقرار بتوجيه الافعال ووضع القواعد. ويعتمد وحدة ثقافة المجتمع وتكاملها على ذلك. الثاني: هو ان الذهن الانساني يختار ويقرر افعاله وآثاره الناتجة عن علم واردة، متفتحة عن نتائج جديدة بالمناظرة والمحاكمة العقلية، اذا اعتمدت المنظومة العقائدية والاخلاقية (كمفهوم) على الاسس العقلية، فيطور بذلك الثقافة وينوعها. وان النظام الإيماني الاخلاقي الذي يؤسس الحضارات يجوز على هذا العنصر ايضاً. ان الثقافات النابعة من الحضارات مفتوحة الابواب امام التغيير. وليست مثل هذه الثقافات بحاجة الى معادلة مثقلة بالعواطف والخلجات والهواجس المقولية والثابتة من أجل أن لا تتخلخل، بل الى مقومات مفهوم واسس عقلانية لنظام إيماني واخلاقي يوطر الافعال والآثار الناتجة. لذلك نشاهد تكرار الثقافة البدائية لنفسها بلا تغيير او تبديل، واستيعاب الثقافة النابعة من المدنية كل تغيير ينسجم مع إيمانها ونظامها الاخلاقي، فتتطور وتثري.

ان الإيمان الذي يؤسس حضارة، يتجاوز حدود التصرف المشحون بالعواطف والهواجس والخلجات والمرتبطة بالاحتياجات البيولوجية، فيتحول الى مفهوم عقلي. ان وظيفة إيمان على هذا المستوى لا يسند جهوده في اشباع الاحتياجات البيولوجية باسباب غير عقلية مثل السحر، بل على العكس تماماً، الإيمان العقلي هو قيمة بحد ذاته ومصدر الهام للنتاجات والمآثورات الثقافية. الإيمان العقلي المؤسس للمدينيات مصدر لتقدم الثقافة واثرائها وتوسيعها وتعميقها لانه مشروع مستقل قائم على نتائج نابعة من المناظرة العقلية. ولاشك ان نوع النواتج والآثار في اطار مدنية معينة وطرزها واسلوبها، تتأثر بجغرافية حياة المجتمع، وامكانياته الاقتصادية وخصوصياته التاريخية الموروثة. لكن معيار المدنية النهائي المطبق مهما كانت الاحوال، هو انسجام النواتج والآثار الثقافية مع اسس النظام الإيماني

والاخلاقي، حيث لا مفر من التمسك به. ان جوهر المدنية هو المنظومة العقائدية والاخلاقية، حسب نظرية الحضارة المطروحة هنا. المدنية هي مصدر لتهيئة الوسط الاجتماعي المؤكد للنواتج والآثار الثقافية، وتوفير التوجه الروحي والطاقة اللازم لتصميم تلك النواتج والآثار. بذلك، تميز النظرية بين الحضارة والثقافة كمفهومين مستقلين، وفي الوقت نفسه، تبرز الروابط بينهما.

في ضوء النظرية، يمكن ملاحظة النظام في الحوادث المتعلقة بالثقافة والمدنية. فيمكن تفسير بعض المظاهر المستغربة بتسليط الضوء على الظروف التي اخرجتها الى الوجود. اذن، كيف تفسر النظرية ادعاء المدنية الغربية بانها مدنية عالية؟ قبل كل شيء، تجد النظرية ان من الخطأ الظن بان المدنية الغربية تقوم على العلم والتكنولوجيا. فاذا كانت المدنية نظاماً إيمانياً و اخلاقياً، لا يمكن القول، بان اساس المدنية الغربية هو العلم والتكنولوجيا. لان العلم والتكنولوجيا لا يغادران موقعهما من عناصر الثقافة، مهما بلغت اهميتهما في الحضارة الغربية. وحتى نفهم اساس الحضارة الغربية، يجب ان نشخص نظام الإيمان والاخلاق الذي اوجدها ونوعها واثراها، باعتبار الحضارة نظاماً للإيمان والاخلاق تولد الثقافة. ان العلم يراقب الاحداث الطبيعية ويمحصها، ويصمم المراحل التي تولدها. واهم ما يميز العلم هو تحقيق ما توصل اليه من تصاميم موضحة ومفسرة في ذاتها بالتمحيص بالمناظرات والمشاهدات مجدداً. يعنى ذلك، ان العلم هو معلومات تحقيقية عن احداث يمكن مراقبتها. ومن ضرورات منطق المنهج العلمي ان العملية التحقيقية لا تمنح علماً قطعياً في أي مرحلة من مراحلها. لان العلم يضع المبادئ العامة والمجردة المتعلقة بالمراحل المولدة للاحداث الطبيعية حسب الادلة المستحصلة من المحاكمات والتمحيصات القائمة على المراقبات المشخصة. ولما كانت المراقبات في الطبيعة لانهائية، فالعلم اذن يعطي معلومات افتراضية. ان المعلومات الافتراضية التي تسمى في العلم بالنظريات تعتمد مادامت مؤيدة بادلة المراقبة. ولكن العلم يقبل تلك المعلومات في حالة افتراضات لعدم التمكن منطقياً من الغاء ظهور الخطأ فيها بنتيجة مراقبات مستقبلية. بسبب هذا الوضع للعلم، يحصل تدقيق مستمر للمعطيات العلمية وتحقق بالتجارب حسب محاكمات ومناظرات جديدة. فلا يتوقف العلم بذلك في محله، بل يتقدم ويتطور. بعبارة اخرى، ان العلم يتقدم باتمام نواقص المعلومات الافتراضية وتصحيح اخطائها. ان تقدم العلم على هذا المنوال بذاته، يظهر عدم القطعية في المعلومات التي يقدمها العلم. فتقدم العلم واستمرارية البحث العلمي لا يكون إلا بقبول الصحة في المعلومات العلمية في درجة الاحتمال الذي لا يتجاوز الافتراضات مطلقاً.

لما كان العلم مجموعة معلومات من هذا النوع، فكيف يقوم نظام المجتمعات الغربية واستقرارها على علم احتمالي وافتراضي ومتعرض الى التغيير دائماً؟ وهل يستوعب المنطق الاجتماعي ان يكون الحجر الاساس لنظام العلاقات الذي يشيد بناء المجتمع، معلومات مجردة لنفر معدودين من المتخصصين لا يفهم كنهها السواء الاعظم من هذا المجتمع؟ فمن الواضح اذن ان العلم لا يمكن ان يشكل اساس المدنية الغربية. ان الامتدادات التكنولوجية الباهرة للعلم تظهر بادية للعيان بصورة ملموسة وتعد مقياساً للتقدم البشري، لان الحضارة لم تصمم على اساس مفهوم اجتماعي لإيمان المجتمع ونظامه الاخلاقي. التقدم التكنولوجي واقعة مشخصة منذ العصر الحجري. لكن لم يظهر من رجال العلم من يدعي التمايز على اساس خصوصية المستوى التكنولوجي لكل مدينة من المدن الهندية والصينية والتركية والمصرية والاغريقية والرومانية ومدنية بلاد الرافدين. هذه المدن اعتمدت على نظام الإيمان

والاخلاق وعلى نظرتها الى الكون. فيجب تشخيص اعتماد المدينة الغربية ايضاً على نظام للإيمان والاخلاق، اذا كان تجسيد النظام الإيماني والاخلاقي للمدينة يجوز اهمية على مستوى النظرية. إن الحضارة الغربية نبتت من الإيمان المسيحي كأصلاح لظلم الحضارة الرومانية وللسقوط الاخلاقي في عصر تدهورها. ولاشك في التوجه الانساني لفكر النهضة الذي ظهر كرد فعل على تسلط ألف عام للكنيسة المتحولة الى منظومة سلطة هرمية. لقد رفض المذهب الانساني الدين المعتمد على الوحي واعتمد العقل الانساني مصدراً وحيداً للعلم، ولم يعترف بالامر والنهي الإلهي، بل تقبل الارادة الانسانية جهة وحيدة للقرار. ان الكنيسة نفسها شهدت بمرور الزمان تمرداً ضد منظومة السلطة الهرمية. ومع استمداد حركات الاصلاح المؤدية الى ظهور البروتستانتية من افكار " المذهب الانساني"، فقد تفرقت بهما السبل ببروز ثقل التمايل الى رفض الارادة الالهية والوحي في "المذهب الانساني". لكن "المذهب الانساني" ظل مؤثراً كتيار اجتماعي وفكري وسيطرت "الفردية" — كامتداد طبيعي للمذهب الانساني — على النفوس. وارتفعت "الحرية الفردية" الى اعلى درجات القيم بنتيجة الإيمان بالسلطة المطلقة لعقل الانسان وبان الفرد خير من يقرر ما يصلح له. لقد سرت جملة من التوجهات والمعتقدات من المدينة الرومانية الى المدينة المسيحية اثناء التأثير في التشكيلات الادارية وسلطة الدولة والحقوق. ان التمييز وعدم المساواة والميل الى استعمال القوة الراسخ في روح المدينة الغربية، يستمد جذوره من الحضارة الرومانية. النهضة، شددت العرى بآثار المدينة الاغريقية والرومانية مجدداً، ووجهت الاهتمام من الحياة الآخروية الى الحياة الدنيوية من جهة، وفي الوقت نفسه، جعلت من عبادة القوة والانشداد الى النجاح حالاً كحال الإيمان من جهة اخرى. ترشحت عبارة القوة والحرص على النجاح من الحضارة الرومانية، وتوحدتا مع "المذهب الانساني" الداعي الى اتخاذ عقل الانسان وارادته مصدراً وحيداً لتنظيم حياته وامتداده الطبيعي: الفردية. وانسحبت "المسيحية" من الحياة الاجتماعية الى خلف الاحداث منحصرة في اطار الضمائر والوجدان بعد الف سنة من السيطرة على الارواح وتنظيم المجتمع، وصراع اجتماعي وفكري وديني وسياسي استمر مئات السنين. لكنه استمر في اشغال حيز مهم من الناحية العاطفية في مشاعر جماهير الشعب الواسعة. الحاصل، ان الإيمان بعقل الانسان وقدسية الحرية الفردية، وعبادة الانشداد الى النجاح والقوة، صارت القوة الروحية التي تشكل الحياة الاجتماعية. وهكذا تمياً الإيمان المؤسس للمدينة الغربية مزجاً استمد من مصادر متنوعة عبر مرحلة من الصراع التاريخي. فلم تعد مدينة مسيحية، لكنها ليست متجردة عن المسيحية ايضاً. وقد يحصل تساؤل عن الدور الذي يلعبه عنصر المسيحية في هذا المزيج في الحياة الروحية للافراد. لكن مهما كان دور هذا العنصر، فالمؤكد ان العناصر المتحركة في التصرفات المشاهدة وتنظيم العلاقات الاجتماعية هي عامل الانشداد الى النجاح وعبادة القوة، وعامل إيمان "المذهب الانساني" بتقديس العقل والحرية الفردية، المستمدان من الحضارة الرومانية والاعريقية. هذا هو "المزيج الإيماني" الذي يشكل الثقافة في دول اوربا وامتدادها الولايات المتحدة الامريكية. وهذا النظام الإيماني والاخلاقي هو اساس المدينة الغربية.

ان المتطلع من خلال نظام اخلاقي ثابت وواضح المعالم نابع من وحي الهي مثل الاسلام، الى كثير من التصرفات واسس العلاقات في اطار النظام الاخلاقي للثقافات الغربية، يجد صعوبة في ادخالها الى مفهوم "الاخلاق". لكن الاخلاق في علم الاجتماع هو مجموعة القواعد المنظمة للعلاقات والمحقة للاستقرار في الحياة الاجتماعية. فاذا تبين افراد مجتمع، قواعد معينة بصورة مشتركة، فهذا المجتمع يعد

"اخلاقيا" حتى ان كان في نظر مجتمعات اخرى "غير اخلاقي". فالاخلاق كمفهوم من الناحية النظرية، قواعد تصرفات تحقق النظام والاستقرار، بغير التفات الى محتواها، بل ينظر الى ادائه للوظيفة الاجتماعية. وفي النظام الاخلاقي للمدينة الغربية ان يتصرف الفرد كما يشاء وان يفكر كما يريد بشرط عدم الاضرار بالآخرين. فالقاعدة الاخلاقية السائدة في حال تبني المجتمع المعتقد الفردي، ليست قوالب التصرفات المحددة، بل تصرف الفرد حسب رغبته بشرط عدم الاخلال بحقوق الغير، وتلقني الآخرين لتصرفاته بالمساحة ولقبول. يعني ان تصرفات كل انسان مسألة تخصه بذاته في اطار فهم واسع جداً. وفي بيئة تتحد معالمها وفق ثقافة نابعة من هذا المعتقد، تعد النصيحة من غير طلب من فرد، تدخلاً في حياته الشخصية. ولا يعامل الناصح حسب حسن نيته، بل باعتبارها متجاوزاً لحدود الحياة الشخصية للمخاطب. ولعل ما يعد انحرافاً وعدم حياء في ثقافات معينة، يجد قبولاً في الثقافات الغربية كتعبير عن الحرية الفردية. كذلك، قد تصرح بافكار لا ترد على الاذهان في المجتمعات البعيدة عن الفردية، وتظهر فلسفات ومعتقدات متنوعة واديان من بنات افكار الانسان، وتؤسس جمعيات لغايات مهمة او غير مهمة، وحتى لاشباع عقد معينة. هذا النظام الإيماني والاخلاقي للمدينة الغربية الذي فسح المجال لعوامل الثقافة هذه، جعل العلم والتكنولوجيا ايضا من العوامل المهمة للثقافة. لان العلم وتطبيق العلم يعني القوة والنجاح. والقوة والنجاح من عناصر الإيمان المقدسة الى حد العبادة! كذلك، يهيئ التغيير المستمر الحاصل من العلم والتكنولوجيا وسطاً صالحاً للتعبير عن الحريات الفردية في جميع الاتجاهات. ان عنصر تقديس القوة والنجاح وعنصر احلال العقل الانساني والارادة الفردية يشكل إيمانا يتولد منه طاقة نفسية تدفع الى احترام العلم والبحث عن الامكانيات التكنولوجية المتاحة به.

فلنترك برهة هذه الايضاحات عن نظام الإيمان والاخلاق للمدينة الغربية، ولنلق نظرة على رأي النورسي بشأنها. يطلق سعيد النورسي على المدينة الغربية اسماء متعددة مثل "المدينة الاوروبية" و "المدينة الحاضرة" أو "المدينة" مجردة، وايضاً "المدينة الوحشية" و "مدينة بلا ميم" ويعني "دنية" بحذف الميم من الكلمة. يلاحظ موقف ثنائي للنورسي ازاء المدينة الغربية فيجد فيها ايجابيات من حيث غزارة الفعاليات العلمية والصناعية والفنية وزيادة انتاج السلع والخدمات وتسريع خطى الحياة وتسهيلها بالمؤسسات المؤثرة والفاعلة، ويجد فيها سلبيات مثل السفه في الحياة والاهواء النفسانية والحرص على الاشتهار والانانية والحياة بتخطي حدود الله ووسائل الله والوسائط الفارغة التي يسميها "فانتازيات المدينة". الاجبايات تطور ملكات الانسان ومواهبه الروحية العليا، والسلبيات تهمش الاصلة والسمو في فطرة الانسان فيقومه الى السبات والخمول. لذلك، يفكر سعيد النورسي بوجودين اثنين لاوروبا. الاولى: اوربا التي تتبع الفنون والعلوم فتخدم العدالة والحياة الاجتماعية بالصنعة وذلك استلهاما من المسيحية. والثانية: اوربا المشجعة للفلسفة الضالة والحياة السفهية.

ان الحضارة حالة متكاملة بالنظام الإيماني والاخلاقي وظهور اوربا مزدوجة او ثنائية في ثنايا ثقافات الامم الاوروبية المتبعة لهذا النظام الإيماني والاخلاقي — كما اشار سعيد النورسي — حالة تصورها نظرية الحضارة المذكورة هنا. و لكن اذا حدد مصدر واحد ومعين تنبع منه اوربتان، فالنتائج المستحصلة من وجود "اوربتين اثنتين" قد تؤدي الى اخطاء. في الحقيقة، توجد مدينة واحدة تغذي صورتين لأوروبا ذات محتوين مختلفين في ثقافات الامم الاوروبية. المحتويان المتشكلان من العوامل الثقافية هما انعكاسات لنوعية الحياة التي يتيحها نظام الإيمان والاخلاق للمدينة الغربية. ان المسيحية

التي تقف خلف الأرواح كديكور مسرح أو في اللاشعور ككابوس، وتحفز الروح لكنها لا تملك تأثيراً في توجيه أفعال الحياة الواقعية، إلى جانب عبادة القوة والنجاح والحرية الفردية غير المعترفة بالحدود الإلهية، تشكّلان نظام الإيمان والأخلاق. وهذا النظام هو مصدر العلم والتكنولوجيا والفن والفلسفة، كما هو مصدر تجاهل الحياة والائتم والانسحاق إلى اللذات الجسدية وسفه اللذات والقمار والخمر والمخدرات والرفاهية والبذخ عن المألوف واهتزاز الحياة العائلية. فهكذا يرى سعيد النورسي أوربا ثانية إلى جانب أوربا الأولى تظهران وتتطوران بسبب اختلاف قابليات الأفراد وامتزاجهم ونشأهم في ظل نظام إيماني وأخلاقي يسمح بالانطلاق في كل اتجاه على محور الحرية الفردية. في الواقع، لا يرى الأوروبيون "أوربا ثنائية"! فهم يرون ثقافتهم وحدة متكاملة، من طبيعتها احتواء التنوع والفروق وحتى التناقضات كضرورة لنظامهم الإيماني والأخلاقي.

ويرى النورسي أن مثالب الحضارة الغربية تزيد على محاسنها. وبعوض الطرف عن تأييد الأوروبيين أو معارضتهم لهذا الرأي كموضوع بحد ذاته، فنقول إنهم لا يجدون مثله في قسم من عناصر الثقافة يراها النورسي سيئات ومثالب. وفي الوقت ذاته، لا يرغبون في منع تشكل عناصر الثقافة التي يجدونها سيئة فعلاً، بتحديد حرية الأفراد، بل يرون الأجدد بهم كضرورة من ضرورات نظام الإيمان والأخلاق للحضارة الغربية، أن يتركوا "المساوي" لمسؤولية الأشخاص وإدراكهم والبحث عن الوسائل المخففة لتأثيراتها ومضاعفاتها وهيئة وسط ثقافي يرشح الأفراد لاختيار الأفعال بشكل عقلائي.

إن الجوانب الحسنة والجوانب السيئة في الثقافات الأوروبية تنبع من النظام الإيماني والأخلاقي نفسه. وكذلك كل فلسفة أوروبية تتولد من ذلك النظام الإيماني والأخلاقي الذي لا يريد أن يجد حدوداً للفكر أو يلزمه باتجاه معين. ومن ضمنها فلسفات دينية مخلصنة ونظم فكرية صادقة في السعي إلى قيادة الإنسانية نحو الخير. وبهذا المعيار، لا يعكس النورسي الواقع الحقيقي للثقافات الأوروبية حين يضعها جميعاً في سلة واحدة، فيطلق عليها "زندقة الفلسفة" وقد أشار زميلي المحترم سليمان خيرى بولاي إلى هذه النقطة في المؤتمر العالمي الثالث لفكر بيدع الزمان. مع هذا، يمكن تفهم رأي سعيد النورسي عن أولئك الفلاسفة من زاوية عدم إيمان الفلاسفة الأوروبيين بصدق نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومن ثم عدم اتباعهم لعلم الله وأرادته في القرآن الكريم. المهم من حيث النظرية التي نطرحها هنا، هو انبثاق عناصر الثقافة كلها بجوانبها الحسنة والسيئة، بضمنها الفلسفات المختلفة، في انسجام مع روحية نظام الإيمان والأخلاق للمدينة الغربية وفي حدود الإمكانيات التي تسمح بها تلك الروحانية. وإن تعطيل المفاصل أو إعاقتها بالضغط أو التدخل لا ينسجم مع روحية النظام الإيماني والأخلاقي للحضارة الغربية. وسلوك هذا النهج لا يرغب فيه الأوروبيون باعتباره مخالفاً لذلك النظام. هذا، وإن كثيراً من مقومات الثقافة التي يعدها سعيد النورسي مساوئ، هي في نظر الأوروبي حرية الأفراد في العيش أو التفكير أو الاعتقاد حسبما يشاؤون. إن الحضارة الغربية نظام اعتقادي وأخلاقي ولد في خصم تاريخ طويل. وما يمنح الثقافات الأوروبية تكاملها، بضمنها السلبيات أو التناقضات في كل منها، هي روحية المدينة الغربية. وما فيها من مساوئ ومفاصل لا تستأصل من الحياة الاجتماعية كاستئصال الورم من الجسد بعملية جراحية. فمحاولة القضاء عليها بهذا الأسلوب يستوجب تقييد حرية الفرد وتحديد نمط حياته من الخارج واضعاف ميول عبادة القوة والحرص على النجاح فيه. وهذا الحال يناقض نظام المعتقدات والأخلاق ويمزق روحية الحضارة الغربية: في الوقت الذي ليست الحضارة الغربية المتشكلة من هذا النظام مجموعة من تلك المقومات الثقافية الفاسدة فقط، بل هي أيضاً مهد للمقومات الثقافية

الحسنة التي ترفع من قيمتها وتؤدي بالتالي الى التقدم في العلم والتكنولوجيا. لم يأخذ سعيد النورسي بنظر الاعتبار ان نظاماً للمعتقدات والاخلاق بعينه يولد المدنية الغربية بجوانبها كلها، حين قرر وجود اوربتين باعتبار ما عدها مساوئ في ثقافتها وما عدها محاسن. مع ذلك، نجد يقف عند مسائل نظام المعتقدات والاخلاق في مقارنة حضارة الاسلام وحضارة اوربا من حيث الاسس التي تقومون عليها. فهو يرى ان المدنية الغربية تستند الى "القوة" وتستهدف "المنفعة" وتتخذ "الصراع" قاعدة للحياة وتعتمد على العنصرية العرقية والقومية السلبية رابطة تشد المجتمعات بعروة واحدة، وان غاية هذه المدنية اشباع الاهواء النفسانية وزيادة الحاجات. وان سبيل القوة يؤدي الى العدوان وسبيل المنفعة الى الصراع لتصورها عن اشباع الرغبات وسبيل قاعدة الصراع الى التصادم، وسبيل العنصرية العرقية والقومية السلبية النامية بابتلاع الآخرين الى العداوة. اما حكمة القرآن، فهي تغير موقع الاستناد من القوة الى "الحق" ومن المنفعة الى "الفضيلة" و"طلب رضا الله" ومن الصراع الى "التعاون" ومن رابطة العنصرية العرقية والقومية السلبية الى رابطة "الدين والوطن". اما الغاية في حكمة القرآن فهي اقامة حاجز امام عدوان الاهواء النفسانية غير المشروعة وحث الافراد نحو المطالب العالية والأخذ بيد الانسان الى الكمال. وسبيل الحق يؤدي الى الوحدة وسبيل الفضيلة الى التكامل وسبيل التعاون الى اسعاف الحاجات، وسبيل الدين الى الاخاء، وسبيل امساك زمام النفس والسعي بالروح في مدارج الكمال يؤدي الى سعادة الدنيا والآخرة.

ان سعيد النورسي يذكر الحضارة الغربية في كثير من المواضع باسم "المدنية" مجردة او "المدنية الحاضرة". وقد يتبادر الى الذهن لأول وهلة انه مقتنع بان المدنية الغربية هي الوحيدة التي تخطر على البال حين تذكر الحضارات او انها تمثل حضارة العصر باعتبارها الاكثر تقدماً او ان المدنيات الأخرى بخسة القيمة ازاها. لكن هذا التصور يتهافت حين نراه يقارن بين "المدنية الحاضرة" وحكمة القرآن. فالظاهر انه يجاري القناعة السائدة باطلاق الكلمة مجردة، لكنه يعلن حين اقتضاء الحاجة زيف "المدنية الحاضرة" وكونه مدنية وحشية في الحقيقة، فيؤكد الخطأ في تلك القناعة السائدة ومخالفته لها.

نأتي الى طبيعة العلاقة المرجوة بين الحضارة الغربية والعالم الاسلامي وبضمنها تركيا. ونقرر ابتداء بان سعيد النورسي اشار ضمناً الى تطور الثقافة استناداً الى منظومة معتقدات و اخلاق، ويلاحظ ان ما حصل حتى الآن ورود الجوانب السيئة من الثقافات الغربية، مع الحاجة الى علوم الغرب وفنونها. ويرى شيوع الظن بامكان اقتباس العلوم والفنون بتضحية المقدسات او التخلي عن جزء من الدين بسبب الشك في قيمة نظام الإيمان والاخلاق الخاص بنا. لكن الواقع هو اقتباس ثقافتنا لفانتازيات المدنية الناكثة للنسيج الاجتماعي، وعدم اقتباسها العلوم والفنون بحق. ولاغبار على ما ذكره سعيد النورسي بهذا الصدد. لان دخول الفانتازيات المدنية امر يسير بتجميع نظام الإيمان والاخلاق للمجتمع. وفي المقابل توجد حاجة ماسة الى الروحية والطاقة التي يمنحها نظام الإيمان والاخلاق لادامة الفعاليات الجادة من قبيل العلوم والفنون المقتضية لبذل المساعي العظيمة ونذر الحياة للفكر والابحاث. لقد تساهلت تركيا ازاء اهتزاز نظامها الإيماني والاخلاقي، بل قامت باجراءات تزيد من شدة الاهتزاز. من جهة اخرى، تركيا بعيدة عن فهم نظام الإيمان والاخلاق الاوربي. اضافة الى ذلك، لن نهضم هذا النظام حتى ان فهمته فهماً صحيحاً، لانه واقع ظهر الى الوجود بنتيجة مراحل تأريخية من الصراع المرير ومصادمات اجتماعية واقتصادية وفلسفية ودينية وتحت تأثير مصادر متنوعة. لذلك، لا يمكن استيعاب نظام الإيمان والاخلاق الاوربي بقرارات فوقية فاولاً: يجب ان يهضم الانسان في روحه النظام

الإيمان والاخلاقي وان كان في نظرنا متضمناً لمساوئ الى جانب المحاسن. وثانياً: يجب ظهور وسط اجتماعي يلائم تشكل الافعال بصورة طبيعية وفق هذا النظام. وبغير هذا الروح والوسط الاجتماعي تبقى الرغبة في اقتباس العلوم والفنون باعتبارها مهمة، مجرد فعاليات لا تتجاوز التقليد السطحي او النقل الجاهز للعلوم او المنتجات.

لم يحلل سعيد النورسي العلاقة بين الثقافة والحضارة وفق نظرية علمية، لكنه استشعر هذه العلاقة وكتب عنها. فهو ينصح بالاعتصام من جديد بمدنية القرآن وترك الهات خلف مدنية الغرب التي يسميها "مدنية من غير ميم" (يعني دنية)، حتى تنجو تركيا من حال الجهل والسفاهة والعجز. فهو يعلن ان مصدر الفيوضات في روح هذه الامة هو نظام الإيمان والاخلاق للاسلام. فاذا لم ينعكس هذا المصدر (المغذي لعزم القيام باعمال عظيمة) من أغوار الارواح الى العقول، تضيع طاقة الامة هدرًا باعمال مبتورة. ألا يكفي تجارب مائتي سنة لاثبات ان اهمال هذا المصدر والنزوع الى المدنية الغربية لا يورث إلا اقتباس مثالب ثقافتها؟ فيما انك لست اوربي الروح، أغن روحك اذن، وافهم حكمة الاسلام، واعبد لتحقق العبودية لله. لكن لاكتنف بالعبادة وحدها، بل شغل عقلك الذي وهبه الله لك في رضاء الله والبحث عن الحقيقة، واستخدام الحقائق التي تصل اليها في نفع البشر كذلك، اقم العدل باحسن وجه كما امر الله، ويسر امور الخلق، ومهد سبل الرزق للفقراء والمساكين، وشد اواصر التعاون الاجتماعي، وابن صرح مجتمع الامان العاملين بعزم وهمة لنوال نعم الدنيا وسعادة الآخرة، وعامل البشر كلهم بالاحسان والعدل وكن قدوة لهم، واعرض بذلك مدنية الاسلام على البشرية جمعاء ببعدها العالمي مطلوباً سامياً. هذا جوهر ما يدعو إليه سعيد النورسي.

بناء على ذلك، من المحال النجاح في فعاليات راسخة من قبيل العلوم والفنون بغير حافز روحي نابع من نظام المعتقدات والاخلاق لمدينة معينة. وان روح المدنية الغربية تفتح الابواب بالدرجة عينها للعلوم والفنون كما لسقوط الاخلاق، وللحاسب السامية كما للسفه. لكن تقدم شعوب تلك المدنية في العلم والفن والحياة والمؤسسات الاقتصادية والسياسة وقوة السلاح يغطي عيوبها المزرية في حياتها الاجتماعية والروحية، ويحقق نجاحها في مداومة السير ضمن حدود حضارتها. فحتى متى؟ الجواب ليس سهلاً. ان تعيين الأجل للحضارات ليس من اعمال العلم والعقلانية، بل الكهانة. المطلوب لحياتنا الحاضرة الاعتراف بوجود هذه المدنية ومعرفة خصائصها وتعيين علاقاتنا بها.

وما من مانع يمنع من مد علاقات سياسية او اقتصادية مع الغرب، او علاقات تبادل ثقافي، بشرط ان نتطلع من خلال نافذة مدنيتنا لتقوم هذه العلاقات على اسس صحيحة. فلا بد من نشأة الاجيال وفق النظام الإيماني والاخلاقي للاسلام بأسلوب تربوي مؤثر، اذا اردنا ان نتلافى المساوئ ونحث على الحسنات في الثقافة التي تعد حياة الامة. وان غاية مقصود سعيد النورسي، تحريك الجهد التربوي لاشباع الارواح بمدنية القرآن في مجتمع تزلزلت مدنيته. واسمى درجات المدنية من حيث روح الفرد هي بلوغ الإيمان كما يلقيه القرآن، ومن حيث المجتمع هي بلوغ الاخلاق كما يعلمه القرآن. ان المدنية الحقيقية هي المدنية الاسلامية التي تؤسس المعادلات المتوازنة بين الفرد والمجتمع، والدنيا والآخرة، والروح والمادة، والإيمان والعقل، والعبودية والحرية، والاحتياجات الحياتية ومطالب السمو. هذه المدنية هي نمط حياة واقعية انعم الله بها على البشر. وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، واقعبتها بسيرته المباركة، وهو كما قال الله تعالى: " قل انما انا بشر مثلكم ". المدنية الاسلامية هي الروحية التي تجسدت في تلك السيرة المباركة. ومهما بلغ الانسان في قوة العقل، فالحياة زاخرة

مجاهيل يعجز عن حلها بعقله. لذلك، ارشده الله تعالى بالقرآن الى الوجهة الصحيحة حتى لا يضيع في خضم هذه الجاهيل. فما اسعد المؤمنين بسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم التي هي قدوة ومحجة بيضاء ترشد الى كيفية ممارسة النصائح والعظات القرآنية في الحياة.

ان سبب التدهور فيما بعد هو الانحراف عن الصراط المستقيم الذي ارشد اليه القرآن وسيرة رسول الرحمة الى العالمين محمد صلى الله عليه وسلم. وان الانتقاص من شأن المدينة الاسلامية بناء على واقع العالم الاسلامي الحالي يستند الى منطق سقيم. فليس حاضر العالم الاسلامي إلا دليلاً على مدى ابتعاد المسلمين في افكارهم ومشاعرهم وفعالهم عن نظام الإيمان والاخلاق للمدينة الاسلامية. ان قضية احياء المدينة الاسلامية، هي قضية وعي المسلمين بنظام الإيمان والاخلاق لهذه المدينة وتقويم انفسهم. هذه المدينة بنظامها الإيماني والاخلاقي حية وفتية، وهي المدينة المتأززة الحقيقية الاولى والوحيدة، وذلك النظام القائم على الوحي الالهي هو للبشرية جمعاء. الاسلام ليس ديناً محتكراً لأمة دون امة. بل هو دين انزله الله للبشرية قاطبة. وقد تكفل بحفظه الى يوم القيامة. وهو معين رحمة وحكمة لكل محتاج يريد اصلاح نفسه ونوال سعادة الدنيا والآخرة. ان الله تعالى هو صاحب هذا الدين، فمحال اذن ان يفتقر الى اصلاح. بل المطلوب ان يصلح المسلمون نفوسهم وارواحهم وحياتهم بموجب نظام الإيمان والاخلاق الذي يشكل جوهر المدينة الاسلامية واساسها.

ترجمة : عوني لطفي اوغلو